

سلسلة المحاربة الأخيار

مالك الأشتر





نَحْنُ فِي سَوْقِ الْكَوْفَةِ فِي أَيَّامِ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي
طَالِبٍ عليه السلام، حَيْثُ النَّاسُ يَعْيشُونَ فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ. فَهُمْ يَرْوَحُونَ
وَيَجِئُونَ بَيْنَ بَائِعٍ يَعْرِضُ بِضَاعَتَهُ، وَشَارٍ يُفَاوِضُ أَوْ يَشْتَرِي، أَوْ
مَارَّةً يَعْبرُونَ الشَّارِعَ كُلُّ فِي شَأْنِهِ وَإِلَى سَبِيلِهِ.

فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الطَّرِيقِ وَقَفَ أَحَدُ الْعَاطِلِينَ عَنِ الْعَمَلِ
يُرَاقِبُ الْمَارَّةَ فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ، وَلَا شَيْءَ يَفْعَلُهُ سِوَى إِطْلَاقِ
تَعْلِيقَاتِ سَخِيفَةٍ، أَوْ الْقِيَامِ بِتَصَرُّفَاتِ صَبْيَانِيَّةٍ طَائِشَةٍ.

بَحَثَ الرَّجُلُ طَوِيلًا عَنْ ضَالَّتِهِ فِي صَيْدٍ غَرِيبٍ مِنَ الْبَشَرِ يُرْضِي
عُقْدَهُ بِالتَّهْكُمِ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ بَدَأَ لَهُ رَجُلٌ قَادِمٌ مِنْ بَعِيدٍ.

تَأَمَّلَ الرَّجُلُ الْقَادِمَ الَّذِي اسْتَرَعَى انْتِبَاهَهُ، فَوَجَدَهُ طَوِيلَ الْقَامَةِ،
عَرِضَ الصَّدْرِ، وَقَدْ انْقَلَبَ جَفْنُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ إِلَى الْأَسْفَلِ.

وَلَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ مَا اسْتَرَعَى انْتِبَاهَ الرَّجُلِ، بَلْ ثِيَابٌ عَابِرِ السَّبِيلِ
الرَّثَّةُ ! كَانَ الرَّجُلُ يَرْتَدِي قَمِيصًا مِنْ قُمَاشِ الْخَامِ، وَعِمَامَةً مِنَ
النُّوعِ ذَاتِهِ.

فِي الْوَاقِعِ لَمْ يَكُنْ أَمْرًا مَأْلُوفًا أَنْ يُرَى فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ رَجُلٌ لَا
يَمْلِكُ ثَمَنَ مَلَابِسٍ فَاخِرَةٍ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى، مَلَابِسَ مَصْنُوعَةٍ مِنْ
قُمَاشٍ مُتَوَسِّطِ النَّوعِ.



لَمْ يَلْبَثِ الْعَاطِلُ عَنِ الْعَمَلِ ذَاكَ، أَنْ قَذَفَ الرَّجُلَ الْمَارَّ
بِبُنْدُقَةٍ عَثَرَ عَلَيْهَا فِي الزُّحَامِ، ثُمَّ أَطْلَقَ ضِحْكَةً تَحْمِلُ كُلَّ
مَعَانِي الْهُزْءِ وَالْإِحْتِقَارِ، أَمَّا صَاحِبُ الْمَلَابِيسِ الْغَرِيبَةِ
فَمَضَى فِي سَبِيلِهِ دُونَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا!
وكَانَ أَحَدَ الْمُؤْمِنِينَ يَرَى مَا يَحْدُثُ، فَأَقْبَلَ نَحْوَ الْعَابِثِ
وَقَالَ لَهُ: "وَيْلَكَ! أَتَدْرِي مَنْ رَمَيْتَ؟".
قَالَ الرَّجُلُ: "لَا!". فَقَالَ: "هَذَا مَالِكُ! صَاحِبُ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام!".

كَانَتْ صَدْمَةٌ غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ لِلرَّجُلِ الَّذِي كَانَ لِلْإِمَامِ عليه السلام
وَأَصْحَابِهِ فِي قَلْبِهِ مَهَابَةٌ عَظِيمَةٌ. فَتَأَسَّفَ عَلَى فِعْلَتِهِ
تِلْكَ، وَانْطَلَقَ يَعْدُو خَلْفَ مَالِكٍ كِي يَعْتَذِرَ مِنْهُ، وَإِذْ
بِهِ يَدْخُلُ إِلَى الْمَسْجِدِ، ثُمَّ يَقُومُ لِلصَّلَاةِ!
جَمَدَ الرَّجُلُ فِي مَكَانِهِ يَنْتَظِرُ مَالِكًا حَتَّى أَنْهَى صَلَاتَهُ،
وَمَا إِنْ انْقَتَلَ مِنْهَا حَتَّى انْحَنَى الرَّجُلُ مُكَبِّئًا عَلَى قَدَمَيْهِ
يُقَبِّلُهُمَا مُعْتَذِرًا عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ.



تَعَجَّبَ مَالِكٌ وَأَبْعَدَ قَدَمَيْهِ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ: "ما هذا الأمر؟".
فَقَالَ: "أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعْتُ!".

فَقَالَ مَالِكٌ: "لَا بَأْسَ عَلَيْكَ! فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ إِلَّا
لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ!".

كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَالِكًا الْأَشْتَرِ، صَاحِبَ الْإِمَامِ عَلِيِّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)!
فَمَنْ هُوَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي شَهِدَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حِينَ
قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ: "يَا أَبَا ذَرٍّ! تَعِيشُ وَحْدَكَ، وَتَمُوتُ
وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَحْدَكَ، يَسْعَدُ
بِكَ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يَتَوَلَّوْنَ غَسْلَكَ وَتَجْهِيْزَكَ وَدَفْنَكَ!".
نَعَمْ. لَقَدْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَخْرُجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَى الْحَبْجِ، وَأَبُو ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ الْمَنْفِيُّ إِلَى الرِّبْدَةِ يَحْتَضِرُ،
وَمِنْ بَيْنِ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ: مَالِكُ الْأَشْتَرِ، وَحِينَ وَصَلُوا
الرِّبْدَةَ وَجَدُوا امْرَأَةً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ تَقُولُ:
يَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا أَبُو ذَرٍّ صَاحِبُ رَسْتُولِ اللَّهِ،
قَدْ هَلَكَ غَرِيبًا، لَيْسَ لَهُ أَحَدٌ يُعِينُنِي عَلَيْهِ. "كَانَتْ الْمَرْأَةُ
تِلْكَ ابْنَةُ أَبِي ذَرٍّ!



ما إِنْ سَمِعَ الرِّجَالُ قَوْلَهَا حَتَّى نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَحَمَدُوا اللَّهَ عَلَى أَنْ سَاقَهُمْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، فَكَانُوا هُمُ الْأَقْوَامَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ، فَتَعَاوَنُوا جَمِيعاً عَلَى تَغْسِيلِهِ وَتَكْفِينِهِ وَتَجْهيزِهِ، ثُمَّ قَدَّمُوا مَالِكاً الْأَشْتَرِ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَبَعْدَ أَنْ دَفَنُوهُ قَامَ مَالِكٌ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ هَذَا أَبُو ذَرٍّ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ، عَبْدُكَ فِي الْعَابِدِينَ، وَجَاهِدَ فِيكَ الْمُشْرِكِينَ، لَمْ يُغَيَّرْ وَلَمْ يُبَدَلْ، لَكِنَّهُ رَأَى مُنْكَرًا فَغَيَّرَهُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، حَتَّى جُفِيَ وَنُفِيَ وَحُرِّمَ وَاحْتَقِرَ، ثُمَّ مَاتَ وَحِيدًا غَرِيبًا، اللَّهُمَّ فَاقْصِمْ مَنْ حَرَمَهُ وَنَفَاهُ مِنْ مَهَاجِرَةِ حَرَمِ اللَّهِ، وَحَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ. "فَرَفَعَ الْحَاضِرُونَ أَيْدِيَهُمْ وَقَالُوا: "آمِينَ".

إِذَا إِنَّهُ مَالِكُ الْأَشْتَرِ، وَالْأَشْتَرُ لَقَبُهُ وَلَيْسَ اسْمُهُ. فَقَدْ أَصِيبَ فِي عَيْنِهِ أَثْنَاءَ جِهَادِهِ فِي مَعْرَكَةِ التَّيْمُوكِ الَّتِي أَبْلَى فِيهَا بَلَاءً عَظِيماً. أَمَّا اسْمُهُ فَهُوَ: مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثِ النَّخَعِيِّ الْكُوفِيُّ. وَرَغِمَ أَنْ أَصْلَهُ مِنَ الْيَمَنِ إِلَّا أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى الْكُوفَةِ بَعْدَ امْتِدَادِ الْإِسْلَامِ وَ إِلَيْهَا نُسِبَ فِيمَا بَعْدُ. كَمَا كَانَتْ كُنْيَتُهُ: أَبَا إِبْرَاهِيمَ. مَا كَانَتْ الصِّفَاتُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِي شَخْصِ مَالِكِ الْأَشْتَرِ إِلَّا لِتَقَدُّمِهِ عَلَى النَّاسِ فِي عَصْرِهِ، وَتَجَعُّلِهِ مُعَلِّماً وَقَائِداً مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ.

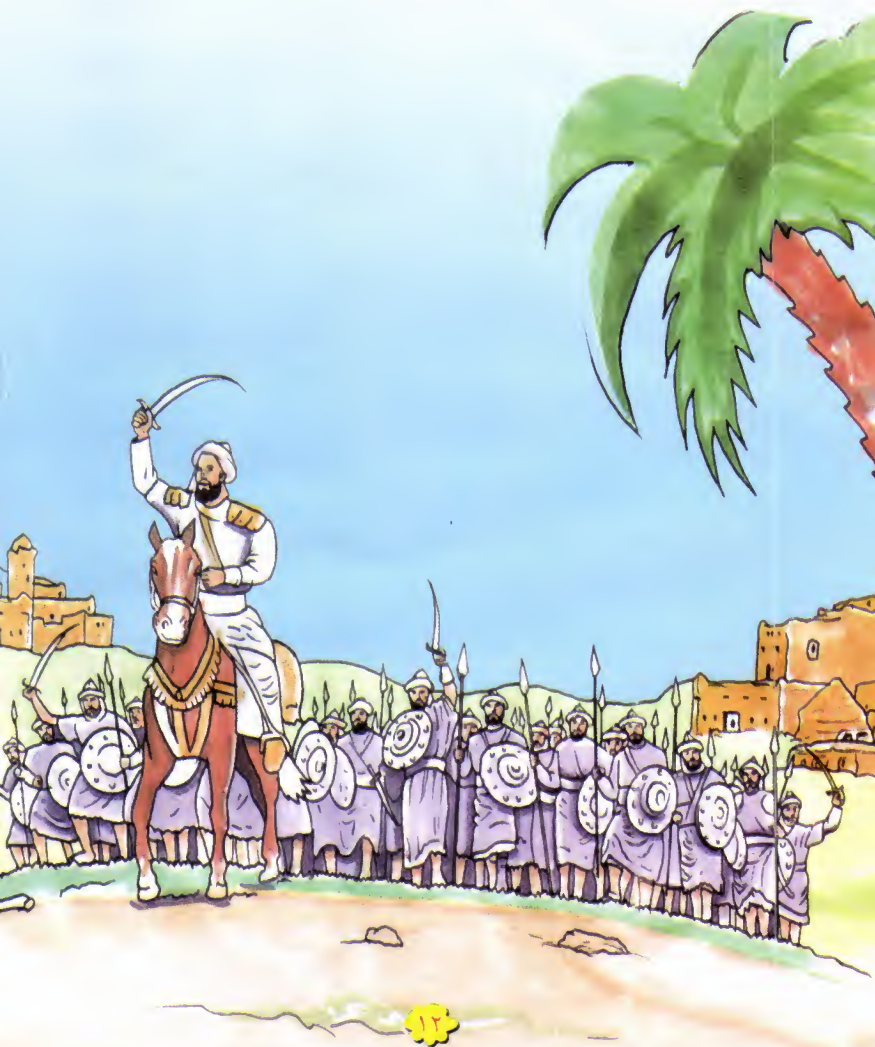


وَلَيْسَ قَلِيلاً أَنْ يَحُوزَ عَلَى ثِقَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** طَوَالَ حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَتَقْتَرْنَ أَحْدَاثُ حَيَاتِهِ بِصُحْبَتِهِ لَهُ، وَنُصْرَتِهِ لآلِ بَيْتِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، مَعَ أَنَّهُ شَهِدَ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وَلَكِنْ، حَدَثَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** انْجِرَافٌ خَطِيرٌ عَنْ تَعَالِيمِهِ وَوَصَايَاهُ، وَأُلْقِيَ عَلَى كَتْفَيْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أَثْقَالٌ عَظِيمَةٌ بِخُرُوجِ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الْقَدَمَاءِ مِنْ جُحُورِهِمْ، وَتَسْخِيرِهِمْ كُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ إِمَكَانَاتٍ لِصَرْفِ خِلَافَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ وَصِيِّ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وَكَانَ مَالِكٌ مِمَّنْ مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ، وَمَلَأَ قَلْبَهُ نُورًا، فَتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةُ، وَتَبَعَ الضِّيَاءَ، وَوَجَدَ نَفْسَهُ مِنَ الْمُحْظُوظِينَ فِي طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، يَتَعَلَّمُ مِنْهُ فَيَرْفِدُ نَفْسَهُ بِأَخْلَاقِ النُّبُوَّةِ السَّامِيَةِ، وَيَتَّبِعُ خُطَاهُ فَيَسْتَهْدِي بِنُورِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

لَمْ يَقْتَصِرْ تَأْتِيَتُهُ صُحْبَةِ مَالِكٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** عَلَى مَزَايَاهُ الْأَخْلَاقِيَّةِ فَحَسَبُ، بَلْ تَعَدَّاهَا إِلَى مَزَايَا قِتَالِيَّةٍ، وَفُرُوسِيَّةٍ لَامِثِلَ لَهَا بَيْنَ الْمُحَارِبِينَ، أَمَدَّهَا إِيْمَانَتُهُ الْعَمِيقُ بِشَجَاعَتِهِ نَادِرَةٍ، وَقُوَّةُ جَعَلَتْهُ مَثَلًا أَعْلَى فِي عُيُونِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ، فَاكْتَسَبَ فِي قُلُوبِهِمْ مَكَانَةً عَظِيمَةً، وَاحْتِرَامًا لَا نَظِيرَ لَهُ.



أَخْلَصَ مَالِكٌ لِلإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِخْلَاصاً عَظِيماً، وَامْتَزَجَ عِشْقُهُ
لأنوارِ النُّبُوَّةِ بِرُوحِهِ وَدَمِهِ،

فَتَجَلَّى ذَلِكَ الْعِشْقُ أَكْثَرَ مَا تَجَلَّى أَيَّامَ خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ،
وَرَفَضَهُ لِأَفْعَالِ وَالِي الْخَلِيفَةِ فِي الْكُوفَةِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، مَا أَدَّى
إِلَى نَفْيِهِ إِلَى حِمَصَ، وَلَكِنَّهُ عَادَ إِلَى الْكُوفَةِ مُجَدِّداً، وَمِنْ هُنَاكَ
كَانَ يَسْمَعُ عَنْ أَعْمَالِ عُثْمَانَ وَتَعَدِّيَاتِهِ عَلَى أَحْكَامِ الدِّينِ، وَتَعَالِيمِ
الْقُرْآنِ، فَقَادَ الْكُوفِيِّينَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الثُّورَةَ عَلَى حُكْمِهِ، بَلْ إِنَّهُ
تَوَجَّهَ بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَاسْتَطَاعَ بِهِمْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى
حُكُومَةِ عُثْمَانَ.

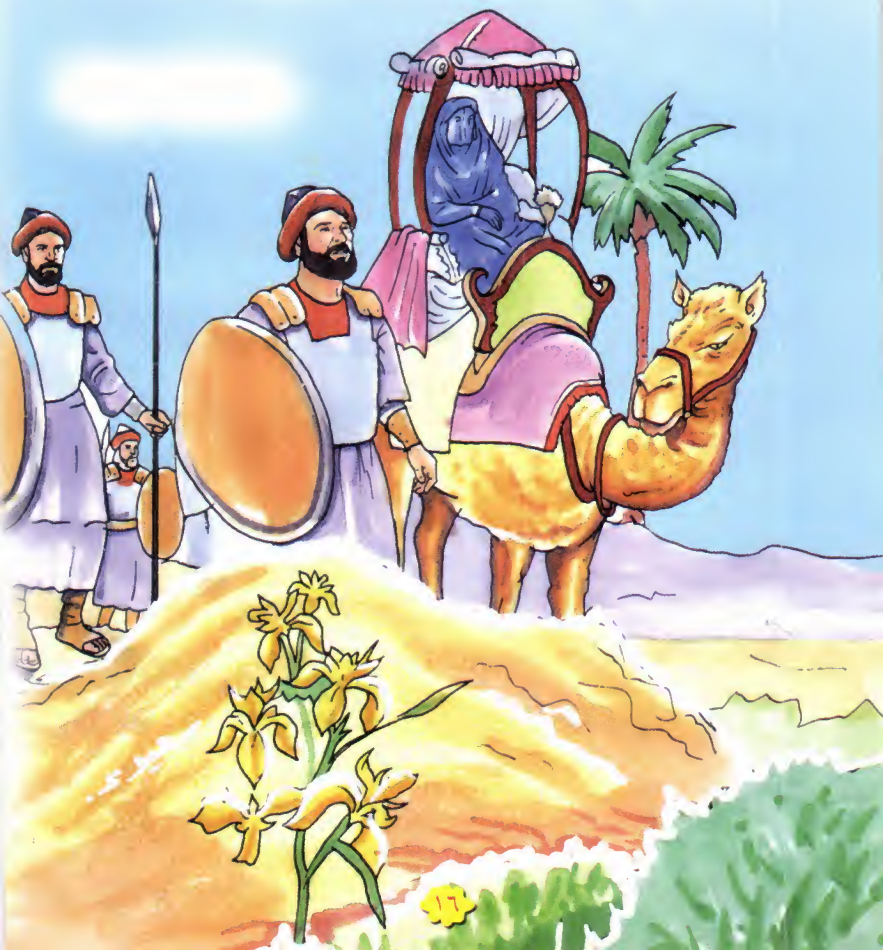
وَبَعْدَ أَنْ تَوَلَّى الإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخِلَافَةَ، وَجَدَ فِي مَالِكٍ خَيْرَ مَنْ
يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ لَمَسَ اسْتِعْدَادَهُ لِفِدَاءِ الْإِسْلَامِ بِرُوحِهِ.
أَمَّا مَالِكٌ فَكَانَ مُنْتَبِهاً إِلَى الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تُوَاجِهُهُ الْإِسْلَامُ
فِي تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ، تِلْكَ الظُّرُوفُ الَّتِي كَانَ فِي مُقَدِّمَتِهَا مَوْقِفُ
عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي رَفَضَتْ تَنْفِيزَ وَصِيَّةِ زَوْجِهَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِي وِلَايَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَكُنْ آخِرَهَا مَوْقِفُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي
سُفْيَانَ الَّذِي عَشِقَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكَ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُ كَادَ
يَعُودُ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.



وَبَعْدَ أَنْ عَتَزَلَهُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ وَلَايَةِ الشَّامِ، بَدَأَ يُجَيِّشُ
الْجُيُوشَ لِقِتَالِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَسْتَعِدُّ لِثَارَةِ الْفِتَنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.
كَانَ يَعْلَمُ مَالِكٌ أَنَّ هَذِهِ الظُّرُوفَ الصَّعْبَةَ تَتَطَلَّبُ مِنْهُ جِهَاداً غَيْرَ
عَادِيٍّ، مَعَ سِيَاسَةٍ حَكِيمَةٍ، فَلَمْ تَنْقُضْهُ الْجُهُوزِيَّةُ فِي هَذَا وَلَا فِي
تِلْكَ.

فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَالِيّاً عَلَى الْكُوفَةِ، وَقَدْ
تَمَنَّى مَالِكٌ عَلَى الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُبْقِيَهُ فِي مَنْصِبِهِ. لَكِنَّهُ عِنْدَمَا
رَأَى فِي أَبِي مُوسَى مَوْقِفاً مُتَخَاذِلاً عَنْ نُصْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي حَرْبِ الْجَمَلِ، تَخَلَّى عَنْ رَغْبَتِهِ تِلْكَ، وَنَفَذَ حُكْمَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِخْرَاجِ أَبِي مُوسَى مِنَ الْكُوفَةِ.

وَهَكَذَا، لَمْ يَكُنْ مَالِكٌ لِيُعْصِيَ الْإِمَامَ عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَيِّ أَمْرٍ مَهْمَا
كَانَ مُكْلِفاً. بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَجِدُ نَفْسَهُ دَائِماً فِي أَوَّلِ صَفٍّ مِنْ
صُفُوفِ أَنْصَارِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى تَرَكَ لَهُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَ
قِيَادَةِ الْوَيْتَةِ فِي أَكْثَرِ مَعَارِكِهِ.



إِذَا، مَا كَادَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام يَتَوَلَّى خِلَافَةَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى تَلَبَّدَتِ
السَّمَاءُ بِغُيُومِ الْحَرْبِ، وَكَانَتْ أَوَّلَاهَا حَرْبُ الْجَمَلِ الَّتِي جَيْشَتْ
لَهَا عَائِشَةُ الْجِيُوشَ، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَخَيَّلَ الْإِمَامَ عَلِيًّا عليه السلام
خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ، رَغَمَ أَنَّهَا تَعْلَمُ تَمَاماً أَنَّ ذَلِكَ مَا أَوْصَى بِهِ
النَّبِيُّ صلوات الله عليه عَلَى مَسْمَعٍ وَمَرَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً.

فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ وَفِي غَيْرِ يَوْمِ الْغَدِيرِ. لَكِنْ كُرْهَهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عليه السلام غَلَبَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَهَا عَنِ التَّفَكُّيرِ بِمَا أَرَادَهُ النَّبِيُّ صلوات الله عليه، الَّذِي
هُوَ تَمَاماً مَا أَرَادَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَالنَّبِيُّ صلوات الله عليه لَيْسَ إِلَّا وَحِياً يُوْحَى.
وَقَدْ حَاوَلَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام أَنْ يَتَجَنَّبَ تِلْكَ الْحَرْبَ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ
الْمُمْكِنَةِ، وَلَكِنْ عَائِشَةُ عَزَمَتْ وَانْطَلَقَتْ فِي هَوْدَجِهَا عَلَى ظَهْرِ
جَمَلٍ وَخَلَفَهَا الْجِيُوشُ، لِيَلْتَقِيَ بِجَيْشِ عَلِيٍّ عليه السلام فِي الْبَصْرَةِ.
وَتَنَشُبُ الْحَرْبُ، وَمَالِكُ الْأَشْتَرُ عَلَى مَيْمَنَةِ جَيْشِ عَلِيٍّ عليه السلام،
يَذُودُ بِسَيْفِهِ، وَيَرَى بِعَيْنَيْهِ الْفُرْسَانَ يَتَهَاوُونَ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ
الْحَرْبُ بِانْتِصَارِ جَيْشِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَيُرْسِلُ الْإِمَامُ عليه السلام
بِأَخِي عَائِشَةَ مُحَمَّدًا بْنَ أَبِي بَكْرٍ كِي يَحْمِلَهَا إِلَى بَيْتِهَا مُكْرَمَةً!



وَيَتَحَدَّثُ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ شَجَاعَةِ مَالِكٍ الْأَشْجَرِ الْفَذَّةِ،
وَسَيْفِهِ الْبَتَّارِ، وَهَكَذَا تَنْتَهِي تِلْكَ الْحَرْبُ بِنَدَمٍ عَائِشَةَ عَلَى مَا بَدَرَ
مِنْهَا، وَإِرَاقَتِهَا كُلَّ تِلْكَ الدِّمَاءِ بِلَا غَايَةٍ.

فَهَا هُوَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ (رَضِيَ) يُخَاطِبُهَا بَعْدَ أَنْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا، وَيَقُولُ لَهَا: "سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَبْعَدَ هَذَا
الْأَمْرَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي عَهَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْكَ فِيهِ، أَمْرُكَ أَنْ
تَقْرِي فِي بَيْتِكَ". فَقَالَتْ: "مَنْ هَذَا؟ أَبُو الْيَقْظَانِ؟". قَالَ: "نَعَمْ".
قَالَتْ: "وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ تَقُولُ الْحَقَّ". فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي قَضَى لِي عَلَى لِسَانِكَ!".

إِذَا هَدَأَتْ حَرْبُ عَائِشَةَ، وَلَكِنْ، مَنْ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ
حَقْدِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَيُطْفِئَ رَغْبَةَ زَعِيمِهِمْ مُعَاوِيَةَ فِي الْإِنْتِقَامِ مِنْ
عَلِيٍّ (عليه السلام) الَّذِي لَطَّالَمَا هَوَى تَحْتَ حَدِّ سَيْفِهِ أَعْتَى عُتَاةَ
الْمُشْرِكِينَ، وَمِنْهُمْ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَقْرِبَاءِ مُعَاوِيَةَ، الَّذِي اسْتَهْرَ
أَبُوهُ وَاسْتَهْرَتْ أُمُّهُ مِنْ قَبْلِ بِالْغَدْرِ وَالنِّفَاقِ؟

إِنَّهَا حُجَّةُ حَرْبِ عَائِشَةَ الَّتِي خَرَجَتْ لِطَلَبِ الثَّارِ مِنْ قَاتِلِي
عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ!



هذا مُعَاوِيَةُ الْآنَ يُطَالِبُ بِدَمِ عُثْمَانَ، وَيَرْفُضُ أَنْ يُعْتَزَلَ
عن ولايةِ الشَّامِ الَّتِي أَمَعْنَ فِيهَا فُحْشاً وَظُلْماً وَسَرِقَةً
لأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَرْزَاقِهِمْ، أَمَّا مَالِكٌ فَقَدْ وَلَّاهُ الْإِمَامُ
عليٌّ عليه السلام على مَنْطِقَةِ الْجَزِيرَةِ بَيْنَ دَجْلَةٍ وَالْفُرَاتِ، وَهِيَ
مَنْطِقَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الشَّامِ حَيْثُ حَشَدَ مُعَاوِيَةُ قَوَاهُ .

فَرَأَى الْإِمَامُ عليٌّ عليه السلام أَنْ يَسْتَدْعِيَ مَالِكاً لِيَكُونَ مَعَهُ فِي
حَرْبِ صَفِيْنٍ، وَكَانَ مَالِكٌ كَمَا تَوَقَّعَهُ الْإِمَامُ عليه السلام، فَارْسَأَ
شُجَاعاً، قَوِيّاً، حَكِيماً، لَيْسَ لِحُلِّ عَقْدِ الْحُرُوبِ الْمُفَاجِئَةِ
إِلَّا سَيْفُهُ!

كَانَ مَوْقِعُ مَالِكٍ فِي الْمَيْمَنَةِ، وَمَوْقِعُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ
فِي الْمَيْسَرَةِ، وَفِي وَسْطِ الْمَعْرَكَةِ بَرَزَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسَيْفِهِ
ذِي الْفِقَارِ يَتَحَدَّى الْمُنَافِقِينَ، وَيُفْرِي رِقَابَهُمْ.

وَتَقَدَّمَ مَالِكٌ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ الْمُتَوَقَّعُ، لَمَّا لَهُ مِنْ خِبْرَةٍ
فِي أُمُورِ الْقِتَالِ، وَذِكَاؤِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمُسْتَجِدَّاتِ إِضَافَةً
إِلَى شَجَاعَتِهِ الْفَائِقَةِ. وَلَكِنَّهُ أَظْهَرَ فِي أَيَّامِ الْحَرْبِ الْآخِرَةِ
مَا يُشَبِّهُ الْمُعْجَزَاتِ، أَلَيْسَ وَاحِداً مِنْ جُنُودِ الْإِمَامِ عليٍّ عليه السلام
وَالْمُقَاتِلِينَ تَحْتَ لَوَائِهِ.



ها هُوَ يَخْطُبُ فِي الْجُنُودِ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لَهُمْ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ
 الَّذِي جَعَلَ فِينَا ابْنَ عَمِّ نَبِيِّهِ، أَقْدَمَهُمْ هِجْرَةً وَأَوْلَهُمْ إِسْلَامًا.
 سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ صَبَّهُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ..".
 وَفِي لَيْلَتِي الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْهَرِيرِ، اسْتَطَاعَ مَالِكٌ
 بِبِسَالَةٍ فَائِقَةٍ أَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْ مَوْقِعِهِ نَحْوَ الْإِنْتِصَارِ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ،
 فَقَدْ طَلَبَ لِجَيْشِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام مَدَدًا مِنْ قَبِيلَتِهِ، فَجَاوَوْهُ
 كَاللُّيُوثِ الْغَضَابِ، كَمَا أَيْدَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام بِمَزِيدٍ مِنَ
 الرِّجَالِ! لَكِنَّ قُرْبَ مَالِكٍ مِنَ الْإِنْتِصَارِ الَّذِي بَاتَ وَشَيْكَاً،
 دَفَعَ أَعْدَاءَهُ إِلَى الْحِيلَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ إِلَّاهَا مُعِينًا وَ مُخْلَصًا
 مِنْ هَذَا الْمَازِقِ! فَقَدْ حَاكَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ قَائِدِ جُيُوشِ
 مُعَاوِيَةَ خُيُوطَ مَوَاسِمَتِهِ، وَكَانَ فِي جَيْشِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عليه السلام
 وَمَالِكٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَغْبِيَاءِ الَّذِينَ سَقَطُوا فِي الشَّرْكِ!
 لَقَدْ حَمَلَ أَهْلُ الشَّامِ الْمَصَاحِفَ عَلَى أَسِنَّةِ الرَّمَاكِ،
 وَقَالُوا: "هَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ!". فَانْصَاعَ أُولَئِكَ
 الْأَغْبِيَاءُ إِلَى قَوْلِهِمْ وَتَوَقَّفُوا عَنِ الْقِتَالِ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُ
 لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمًا يُطَالِبُونَ بِحُكْمِ الْقُرْآنِ.



ولكنَّ الإمامَ عليّاً عليه السلام ما كان غافلاً طرفَةً عَيْنٍ عَنْ تِلْكَ الْمُؤَامَرَةِ، فَشَرَحَ لِحَيْشِهِ أَنَّ الْقَتُومَ يَحْمِلُونَ الْمَصَاحِفَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَرَغِمَ ذَلِكَ فَقَدْ طَلَبُوا مِنَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام أَنْ يُرْسِلَ بِطَلَبِ مَالِكٍ، وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِإِيقَافِ الْحَرْبِ!

فَانْقَسَمَ جَيْشُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَوَقَعَتْ فِيهِ الْفِتْنَةُ. إِنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ خُدِعُوا وَتَمَرَّدُوا عَلَى أَوْامِرِ إِمَامِهِمْ أَكْثَرُ أَتْبَاعِهِ اجْتِهَاداً فِي عِبَادَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِبَقِيَّةِ الْجُنْدِ إِذَا أَنْ يُطِيعُوهُ؟ . . . لَمْ يُعَدِّ أَمَامَ الْإِمَامِ عليه السلام بُدٌّ مِنْ أَنْ يَأْمُرَ الْأَشْتَرَ بِالْعُودَةِ، وَإِيقَافِ الْحَرْبِ. أَمَّا الْأَشْتَرُ، فَقَدْ عَرَفَ الْخِدْعَةَ، وَقَالَ لِلْقَوْمِ: " . . . رَفَعُوا الْمَصَاحِفَ يُدْعُونَكُمْ إِلَى مَا فِيهَا، وَقَدْ وَاللَّهِ تَرَكُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ فِيهَا، وَسُنَّةَ مَنْ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ. "

وَقَدْ تَأَلَّمَ كَثِيراً مَنْ أَنْ يَجِدَ الْخِذْلَانَ طَاغِياً عَلَى الْكَثِيرِينَ مِنْ أَفْرَادِ جَيْشِهِ، حِينَ وَصَلَ إِلَى أَبْوَابِ الظُّفَرِ، فَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّ النَّصْرَ بَاتَ قَرِيباً، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُمَهِّلُوهُ وَقْتاً يَسِيراً جَدّاً، لَكِنَّ الْقَوْمَ وَقَعُوا فِي الْفَخِّ الَّذِي نُصِبَ لَهُمْ، وَقَدْ عَمُوا عَنْ مُعَاوِيَةَ وَصَحْبَتِهِ، وَأَسَالِيهِمْ فِي الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ.



وأخيراً انتظرَ مالِكٌ قرارَ الإمامِ عليٍّ عليه السلام.

كَانَ الْإِمَامُ عليه السلام يَرَى فِي خُرُوجِ أَتْبَاعِهِ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ كُبْرَى، وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ كَيْ يَحْقِنَ الدِّمَاءَ سِوَى أَنْ يُوَقِفَ الْقِتَالَ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ فَوْراً.

أَمَّا الْخَوَارِجُ فَقَدْ أَصْرَوْا عَلَى التَّحْكِيمِ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِتَكْتَمِلُ فُصُولُ الْخِدْعَةِ!

لَمْ يَكُنْ هَذَا مَا يَتِمَّنَاهُ مَالِكٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَمَامَ أَمْرِ إِمَامِهِ سِوَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ.

فَتَوَجَّهَ إِلَى النَّاسِ وَهُوَ يُوقِّعُ عَلَى صَحِيفَةِ الْإِتْفَاقِ، وَقَالَ: "... رَضِيتُ بِمَا صَنَعَ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَخَلْتُ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ، وَخَرَجْتُ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَّا فِي هُدًى وَصَوَابٍ."

إِنْتَهَتْ مَعْرَكَةُ صِفِّينَ، بَامْتِحَانٍ عَظِيمٍ لِأَصْحَابِ عَلِيٍّ عليه السلام، فَسَقَطَ فِيهِ الْكَثِيرُونَ، وَنَجَحَ فِيهِ الْكَثِيرُونَ، وَلَيْسَ هَذَا الْأَمْرُ بِبَعِيدٍ عَنْ أَيَّامِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلم، فَلَقَدْ انْقَلَبَ الْكَثِيرُونَ عَلَيْهِ فِي يَوْمٍ أَحَدٍ، وَهَذِهِ هِيَ نَفْسُ الْبَشَرِ الْأَمَارَةُ بِالسَّوْءِ، وَلَا يَنْجُو مَنْ الضَّلَالِ إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ



كَانَ مِنْ أَوَّلِ النَّاجِحِينَ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ مَالِكُ الْأَشْتَرِ، الَّذِي خَرَجَ مِنْهَا بِعِبْرَةٍ كُبْرَى، مَكَّنْتُهُ حِينَ عَادَ إِلَى الْجَزِيرَةِ حَيْثُ وَلَاهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام مِنْ خَوْضِ الْحُرُوبِ الشَّرْسَةِ ضِدَّ أَعْدَاءِ الدِّينِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْ مَوْقِعَةٍ إِلَّا ظَافِرًا، وَعَلِمَ الْإِسْلَامَ يَخْفِقُ فِي الْعِلَاءِ.

وَسَرَّعَانَ مَا احتَاجَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام لِيَكُونَ وَالِيًا عَلَى مِصْرَ، بَعْدَ أَنْ تَمَرَّدَ أَهْلُهَا عَلَى وَالِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ كَتَبَ الْإِمَامُ عليه السلام إِلَى أَهْلِ مِصْرَ يُخَبِّرُهُمْ عَنْ وَالِيهِمُ الْجَدِيدِ وَيَصِفُهُ لَهُمْ: "بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، وَلَا يَنُكَلُّ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ... وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ، وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ."

لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ الْإِمَامَ عَلِيًّا عليه السلام زَوَّدَ مَالِكًا بِدُسْتُورِ إِسْلَامِيٍّ رَفِيعٍ فِي كَيْفِيَّةِ إِدَارَةِ شُؤُونِ الْبِلَادِ، وَتَسْيِيرِ أَعْمَالِ الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ.

وَمَا إِنَّ عِلْمَ مُعَاوِيَةَ بِأَنَّ مَالِكًا بَاتَ وَالِيًا عَلَى مِصْرَ حَتَّى جُنَّ جُنُونُهُ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ خُطَطَهُ فِي نَشْرِ الْفَسَادِ بَيْنَ أَهْلِ مِصْرَ سَتُؤَوَّلُ إِلَى الْفَشْلِ، فَهُوَ يَعْرِفُ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ مَنْ يَكُونُ مَالِكُ، وَمَا وَضَعَهُ الْإِمَامُ عليه السلام بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ خِطَطٍ وَبَرَامِجٍ لِلْقِيَامِ بِعَمَلِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ.



طَبْعاً كَانَ مُعَاوِيَةُ مَشْهُوراً بِدَهَائِهِ وَمَكْرِهِ، إِضَافَةً إِلَى اسْتِهْتَارِهِ
بِتَعَالِيمِ الدِّينِ وَأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَكُنْ صَعْباً عَلَيْهِ أَنْ يُرْسِلَ
بِأَعْوَانِهِ لِيُدْسُوا السُّمَّ فِي الْعَسَلِ، وَيَقْدُمُوهُ إِلَى مَالِكٍ، لِيُكْرِمَهُ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالشَّهَادَةِ، وَيَفُوزَ بِالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى.

وَحِينَ عِلِمَ الْإِمَامُ عليه السلام بِاسْتِشْهَادِ مَالِكٍ، حَزَنَ عَلَيْهِ حُزْناً شَدِيداً،
وَكَانَ لَهُ فِيهِ كَلِمَاتٌ خَالِدَاتٌ: "أَلَا إِنَّ مَالِكاً بَنَ الْحَارِثِ قَدْ قَضَى
نَحْبَهُ، وَأَوْفَى بِعَهْدِهِ، وَلَقِيَ رَبَّهُ، فَارْحَمَ اللَّهُ مَالِكاً! لَوْ كَانَ جَبَلاً
لَكَانَ فِينَدَاً (مَا يَبْرُزُ مِنْهُ) وَلَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً.
لِلَّهِ مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ؟ وَهَلْ قَامَتِ النِّسَاءُ عَنْ مِثْلِ مَالِكٍ؟ وَهَلْ
مَوْجُودٌ كَمَالِكٍ؟".

لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا أَعْظَمُ شَهَادَةٍ بِمَالِكٍ، وَقَدْ خَرَجَتْ عَلَى لِسَانِ
أَعْظَمِ الْبَشَرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلی اللہ علیہ وسلم خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.
وَهَكَذَا انْتَهَتْ حَيَاةُ وَاحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ أَنْصَارِ النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم وَآلِ بَيْتِهِ،
وَرَكْنٍ أَسَاسِيٍّ مِنْ أَرْكَانِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَةِ.
رَضِيَ اللَّهُ عَنْ مَالِكٍ الْأَشْتَرِ.

